الباب الثامن

برنارد شو والفيكتوريين

للعلامة لورانس هاوسمان

أعتقد بأن برنارد شو هو القوة المدمرة المحطمة التى أطبقت على انجلترا من جميع النواحى . فمن بدء القرن العشرين إلى يومنا هذا والتدمير الذى سببه هذا الرجل يعمل ما يعمله بيننا . كما أنه أفاد ونفع انجلترا إفادة ونفعاً عظيمين .

وليس فى استطاعتى أن أتذكر إنساناً أمكنه أن يسبب هذا الانتقال العظيم فى جيلنا والتحول الملموس فى مجتمعنا ، بقدر فضل ذلك الرجل الذى استطاع أن يحول دفة السفينة فى بحر الحياة وسط النوء والأهواج ، فلا يفلت منه الزمام ، بل يظل قابضاً عليه بيد فولاذية تفل الفولاذ !!

ولو لم يهبنا الله هذا الإرلندى ، لظللنا على حالنا الأول من التأخر فقد استطاع هذا الرجل أن يغير « الطبقة الوسطى » إلى « طبقة وسطى عالية » ..

خلق العصر الفيكتورى منظما فى نواحيه السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، وكانت له مزايا خاصة . ولكن هـــذه المزايا أصيبت بعدوى الفساد والتخلخل . وبجانب هذا جرى مجرى آخر للفساد الاجتماعى مصدره أن الطبقة المتعلمة لم تجد منفعة تذكر فى الطبقة الدنيا ، ولم تهتم بها أى اهتمام يذكر . فقد كان سيان عندها أن تحيا هذه الطبقة أو تموت ، تجوع أو تشبع !!

وإزاء هذه الانحلالات والتفكك فى المجتمع فى أواخر القرن التاسع عشر ظهر برنارد شو لينقذ البلد بمواهبه وعبقريته من المساوىء التى أمات بالإنسانية ، وبشىء ما نفث فيها من سخريته بالتقاليد والعرف والأوضاع . وابتدأ بسلسلة طويلة من كتابة المسرحيات التى مثلت على مسارح انجلترا ... وسببت هذه المسرحيات ثورة تاريخية لمسارح انجلترا ، وأجبرتنا جميعاً على أن نعترف بأن برنارد شو أعظم كاتب الدراما ظهر بعد شكسبير .

فكثيرون من كتاب الدراما يسيرون فى طريق طويلة ، حتى يشهد لهم العالم بالعظمة والخلود . .

ولكن كاتباً لم يتورع مطلقاً عن إظهار عيوبنا ، وما يسود المجتمع من رياء وزيف هو الذى أجبرنا على أن نعترف له بالعظمة والخلود . .

فبرنارد شو الإيرلندى غذى المجتمع البريطانى بتحليله الخلق الانجليزى ، وتوغله فى معرفة أسراره ، ونحن الانجليز فى استطاعتنا إذا وقفنا على أخطائنا أن نضحك طويلا من أنفسنا !!

غذى برنارد شو المجتمع الانجليزى عن طريق النكتة ، وليس عن طريق الحكمة إذ لو لم يجبرنا على الضحك لما استمعنا اليه مطلقاً . . فإجبارنا على الضحك تركنا فى ضحك طويل متواصل ، وهو يزيح لنا الستار عن حقيقة أنفسنا . . ولأنه قال ذلك بطريقه سهلة اكتشفنا أنه كان على حق فيما قاله . وبهذا تحول حالنا تدريجياً وحاولنا جاهدين أن نتفادي الأخطار و نتلافاها !

وكان هذا التغيير فى أوج عظمته قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) واستمر كذلك يتزايد ويتزايد ، وكانت النكتة ، تحمل فى طيها حكمة أيضاً ، ووراء قناع الضحك كان برنارد شو يقتل جراثيم الفساد العالقة بالمجتمع !

قيضت الحياة برناردشو ليقضى على العصر الفيكتورى ، وبدونه ما كان يتيسر القضاء على مخلفات ذلك العصر وخلق عصر آخر أكثر منه حيوية ونشاطاً . . . فأنا نفسى فيكتورى ، وأشعر بمدى آثار ذلك الرجل فى نفسى . . فقد عرفته وعرفته جيداً عند ما كنت فى العشرين من عمرى . . ودعنى أقول لك الحقيقة ، فإننى بدأت بكراهيته ، لأنه كان يفسد ذوقى ، ويضعف حاستي بكل ما هو منطق معقول .

ولا يزال فى كثير من الأحايين يسىء إلى ذوقى بمبالغاته المتعددة ، ليس للحقائق ذاتها ، بل مبالغاته فى التعبير واستعمال الكلمات . .

وإن أنس لا أنسى يوم وقفت أناظره مرة وفهت بهذه العبارة ، إذا دفعنا للعمال أجوراً مرتفعة أو أحسن مما هى عليه الآن ، فما لا شك فيه أنهم لن يعرفوا كيف يستخدمونها الاستخدام اللائق ، وكيف أنه صرعنى إلى الأرض بعدها ، وهذا ماجعلنى أن لا أدافع عن الأجور عن طريق المناظرات والمساجلات مرة ثانية فى حياتى .

رسالة من هـ . ج ويلز

الى جورج برنارد شو

١٦ أبريل سنة ١٩٤١

عزيزى : ج . ب . ش .

رأيت الكتابة اليك اليوم بعد أن شاهدت مسرحيتك « ماجور بربارا » فهى والحق يقال مبدعة وسارة . فقد خلقتها خلقا جديدا ، وألبستها ثوبا قشيبا من الأبهة والفخار . . وقد كان يحسن « باندرو اندر شانف » أن يتقنع بقناع رجل مراوغ داهية . وعلى كل لم يكن فى المسرح متسع لفرد واحد وقد حصلت أنا وموورا زوجتى على آخر مقعدين بشق الأنفس وبجهد كبير ، والحق أقول إنك لن تحصل على نظارة مستحبين مثل هؤلاء الذين كانوا هناك ، فقد ضحكوا ضحكا متواصلا بدون انقطاع وعلى الأخص الشبان فى أزيائهم العسكرية » .

عزيزى شو :

إن النظارة الفابيين قد ماتوا واندثروا ، واعتقد أن أفكارنا أصبحت تؤثر على الشباب والنشء بدرجة مستفحلة وكبيرة . .

كان « بافلوف » مثلك فى درجة نجاحك . وكان بارع الحديث مثلك أيضا ولكنه كتب شعرا شيطانيا مخالفا للعادة .

إننى لم أتعلم تحت نظام مدرسى ثابت . فقد تركت المدرسة فى الثالثة عشرة من عمرى وبعدها قمت بأبحاث بيولوجية فى « كلية العلوم الملكية » وعندما خرجت من « العلوم الميكانيكية المادية » قضيت نصف سنة فى دراسة علم الطبيعة فى كنزجتون وضايقتنى كثيرا دراسة اللاتينى والألمانى . ومن المؤسف انك لم تقم بأبحاث بيولوجية ولكنك فى درجة رفيعة من العلم والمعرفة . .

إن تقدمنا فى السن متعب ومنهك . إننى لم أشعر بمثل ما أشعر به اليوم من اضطراب قلبى مستمر ، وفقر دم فى المخ ، وكثيرا ما أنسى كل شىء . كتبت أخيرا كتابا عن النظام العالمى الجديد ، كما أكتب الآن رواية . فاستمر أنت بمسرحيتك ومهما يحدث الآن ، فقد ضيعنا وقتا سعيدا لانفساه ؟

المخلص

ه . ج .